

الليل يهبط بمظلتها على رأسي

حسن بولهويشات *

العالم كبير، والأوطان رحيمة وهادئة بانهار وجبال كثيرة ومدن أمنة تنشر أعضائها فوق نجاعيد الخريطة. وأشجار تتساقط خلف عجلات الطريق كأفكار خارجة للتلو من خيالات رخوة. وحدائق ضاجة بأطفال يجزون الفرخ من أذنيه الطويلتين. وعشاق يمسخون غبار الذاكرة بمناديل ورقية معطرة وحواجب متأهبة للإفصاح عما جرى. حتى البيوت الوطنية والأكوخ المنفردة في الضواحي تبدو ليلاً مثل بحيرات بأصابع لامعة ومايوهات سباحة متخلى عنها، فيما الصيادون يداعبون سمك الشايل بقصبات معقوفة، وحنان محسوب مدحرجين كرات الخيال الملوثة بعود المزاج وشاي النار الهادئة.

أفكار كثيرة تتساقط من السماء في الليل. الله يفتح النوافذ ويلقي بها إلى العباد بلا حساب. أفكار أخرى تضيع في التواءات الوديان وتجاويف الجبال والطرققات. يدوسها العسس والسكراري بالأقدام، فيغضب الله وتنبج الكلاب ويسود الظلام. الكلاب وفية لأصحابها، وجميلة حتى عندما ترفع رجلاً وتتبول على جذع شجرة.

الليل جميل، أيضاً، بأفكاره وأخيلته التي نحوم حول رؤوس الشعراء والفلاسفة والصيادين. الملاعين وبقية المطرودين من عرصات الحب والحنان، عكس النهار الذي يبدو بئساً مثل موظف الأرشيف الجالس في الدرج الأخير من سلم الوظيفة بهيئة مشوشة ووجه مسحوب الدم، سترته الرمادية مغبرة وحائلة اللون وظهره مقوس من فرط الانحناء لرئيس العمل، فيما أزرا قميصه منزوعة بالكامل بسبب عراك دائم مع الحياة. وما هي الحياة؟ أن تملك بيتاً تعود إليه في المساء باكياس الفواكه والهدايا. زوجة وأولاداً يقشرون النهار بالضحكات والليل بالشخير. وراتباً شهرياً تسحبه على فترات من الشباك الأتوماتيكي، تدس المال في الجيب وتستدير بسرعة محترساً من اللصوص. أن تجلس مع الأصهار في صالون ضيق بلا نافذة وتثرثر عن الطقس وغلاء المعيشة كأي أب مهتم بمصير الأولاد. وتقرب كل مساء من نفس المرأة الغليظة، وتلتصق بجسدها مثل قنفذ وتوهم أنك مهم وسعيد. أحب أن يأتي الليل ويجدني ممدداً فوق السرير بستره الرياضية، أحك رأسي وأستعيد كل شيء تقريباً، فالقهوة تحرك الذاكرة بقضيب رقيق وتدفع الأفكار البعيدة إلى مقدمة الرأس وتزيل تعب الوظيفة من المفاسل وأسفل القدمين، والقهوة تشبه الناي الذي يعزفه عليه أحدهم في ساحة عمومية لتخرج الثعابين من صندوق خشبي وتتلوى فوق منديل أخضر فيما أنا واقف في زحام الدائرة بقم فاغر وسروال دجينز ممسوح. أنهزم مع أبحرة القهوة فاغدو رومانسياً أكثر من اللازم لدرجة أكون مستعداً لتوقيع شيك على بياض، خصوصاً في ليالي الشتاء الطويلة عندما ينقر المطر بأصابعه الرقيقة على نوافذ الشعراء والعشاق وبقية المبعدين. ويتحز أبطال الروايات المطولة من قبضة السارد المتجههم فيتحركون في شوارع المخيلة دون ضجر.

يكفي أن يأتي الليل كي أرفع رأسي إلى السماء وأشكر الله. هناك من

يقول إن الله يوجد في كل مكان، ويسير جنباً إلى جنب مع الناس في الأسواق ويجلس معهم حول الطاوات في المقاهي والبيوت دون أن يأكل أو يشرب شيئاً، لكن لم يحدث إطلاقاً أن سمعت أن الله صفع لهماً على وجهه أو جرد حاكماً جائراً من سرواله ونكل به في ساحة عمومية، أو سكب سطل ماء ساخن على آخر وسلق وجهه أمام كاميرات العالم. هذا يعني أن الله رحيمٌ بعباده أكثر مما يعني أن كاتب هذه السطور ملحدٌ وشكّك.

أعود إلى البيت كأي مواطن محظوظ بغرفة وسيدة وسرير ريشيوند ناعم بمرآة لاصقة في الظهر كشاهدة قبر. وطاولة الليل بكرسيين متقابلين كعاشقين ودودين. وخزانة كتب حيث الشعراء يسهرون فوق خشب مدتب، وحنن الفلاسفة ساطع مثل تهم ثقيلة. مواطن أعزب يستهلك الكثير من البطاطس ويسدل الستائر باكراً ويتأكد من إغلاق الباب وسدادة العاز قبل أن يشتري تذكرة خيال ويسافر، كأن أصل إلى أماكن بعيدة وأسهر فوق خشخاش الوديان دافعاً مركب رامبو السكران إلى الأعماق. وأغتر الأفكار والفناعات كأي محتال بابتسامة جانبية وقميص بأزرار علوية مفتوحة.

وحتى عندما أهم بوضع المفتاح في ثقب باب الحياة الجديدة حيث زوجتي يشعر هفهاف وخدود الورد، وأبتسامة مندلقة في صحن المطبخ الصافية. وأطفال يقشرون تفاحة الفرخ حول طاولة العشاء المضبوطة على عقارب العاشرة، بينما مقدمة نشرة الأخبار في التلفزيون الحكومي ترفع صوتها كلما تعلق الأمر بشؤون الوطن. غير أنه كلما أكمل المفتاح دورته الأولى في ثقب الباب، انتبهت كم أنا غامض ومحبير مثل لغز. وأنني لا أصلح إطلاقاً لهذه الحياة العسكرية حيث الجنود يتنمون في وجه الجنرال. ليس بالضرورة أن يكون الأطفال هم الجنود، وأن تكون زوجتي العزيزة هي الجنرال باكتافه العريضة، في الوقت الذي لست معنياً بالمرزة بهذه الرتبة العسكرية الرفيعة.

فرصة أخرى هذه الليلة كي أجوس أرض الإنترنت الوسيعة وشارع الفايبيوك الأزرق، حيث اجتمع ما تفرق في الأوطان والخرايط. الماركسيون يعيون ذابله من شدة السهر على الأفكار الجيدة. والثوريون يقبعات تشي غيفارا الذي يتجول بدراجته النارية في الرؤوس. ورسامو كاريكاتير الوجه العربي بأصابع مرتعشة يمسحون رأس حنظلة الجالس فوق مصطبة الألم بيدين معقوفتين إلى الخلف. فيما ماريستانات حقيقية بأشجار مورقة وأعشاش بفراخ كثيرة، وغرف متباعدة ياوي إليها مرضى يسقون شجرة الحياة الذابلة بسطول مثقوبة وأعصاب مفقودة ونظرات زائغة. الشعراء يظهرون بعد منتصف غرينيتش حيث الليل يغدو شفافاً كلما تقدم بعكازه الأسود في اتجاه النهار متأبطاً أحلام الفقراء والمسحوقين التي تنجس من مخدات مفشوشة. العموديون بحماسة الأجداد المهذورة ويقايا قوافل مرت من هنا، ونساء يمخضن اللبن أمام خيام القبيلة، بينما الأحرار يقبلون أوزان الفراهيدي المكسرة بمطرقة السباب وأسنان نازك الملائكة الحادة. وأيضاً مجانين قصيدة النثر الذين بعثرتهم كرابيح حكّام العرب في عواصم الجوء وتحلقوا

حول جرائد المهجر مقاومين البرد بالحنين، والغربة بالقصائد والسخرية المندلقة من الأشداق. وصولاً إلى الشاعر (الوهم؟) الذي يتعقبن من مقهى إلى آخر مثل مخبر عنيد، فأحك جبهتي بداخل أصابعي. وأدور حول نفسي كثور هائج قبل أن أحكم قبضتي على

صدره العامر بالنيكوتين وأرجه طويلاً حتى تدمع عيناه وأهوي عليه بكل ما أوتيت من قوة حتى تتكسر أسنانه النخرة وتخرج منه قطرات بول حزينة، ثم أدفع به إلى حائط الظلام. غير أنني سرعان ما أغسل يدي من بقايا دماء مغشوشة، وأسوي دكة سروالي وأعود إلى

عادتي القديمة، كأن أجلس لساعات طوال وسط فناجين مشروبة إلى النصف. هكذا ألهج بكلمات غير مفهومة. صامتاً كمقامر وضع الريح والخسارة في سلة واحدة. مسحوقاً وبئساً كمسافر يقضي ليلته في محطة قطار بعيدة.

* كاتب مغربي

توماس لوروي
«احتاجك
بالقرب مني»
(برونز - 65 ×
35 × 80 سنتم
2016 -



المساهمات الإبداعية في ملحق «كلمات»

يمكن إرسال المساهمات الإبداعية (من قصص وقصائد ونصوص حرة وترجمات وصور فنية ورسوم) إلى ملحق «كلمات» في جريدة «الأخبار». على العناوين الإلكترونية الآتي:

KALIMAT@al-akhbar.com

على أن يرفق كل إرسال بالإسم الكامل لصاحبه أو صاحبه. وعنوان الإقامة. ورقم هاتفه لأي تواصل محتمل.

بالنسبة إلى الترجمات الأدبية، تعطى الأولوية لنصوص خضعت لاتفاقيات مسبقة مع التحرير. ويستحسن أن يكون التعريب عن اللغة الأصلية التي كتب فيها النص، مع تعريف واف بالكاتب (ة) والمترجم (ة).

تحتفظ إدارة التحرير لنفسها بقرار نشر المساهمات المقترحة أو عدمه. من دون أي شرح أو تبرير أو مراجعة.